فبالعودة إلى كبار أئمة التراث, نجد أن مفهوم الإجماع نفسه كان محل تساؤل؛ فهذا الإمام أحمد بن حنبل يقول: 'من ادعى الإجماع فقد كذب, ما أدراه لعل الناس اختلفوا؟. وبالفعل, لم يخلُ تاريخنا من قامات علمية مارست حقها في نقد مرويات البخاري؛ فنجد ابن حزم يُضعّف روايات مثل (المعازف) و(الإسراء), ونجد ابن عبد البر, والقاضي أبا بكر بن العربي, وصولاً إلى المدرسة الإصلاحية الحديثة مع الإمام محمد عبده والشيخ الغماري, جميعهم ردّوا روايات محددة في البخاري لمخالفتها الأصول.

وهذا يؤكد أن 'القبول' لم يكن يوماً مطلقاً ولا شاملاً, بل كانت هناك دائماً عقول نقدية ترى في الكتاب جهداً بشرياً يُؤخذ منه ويُرد.

هذه الطبيعة البشرية للكتاب تظهر بوضوح في الأرقام التي أوردها الإمام البخاري نفسه؛ إذ يذكر أنه استخلص كتابه (الجامع الصحيح) من بين نحو ستمائة ألف (600,000) رواية جمعها على مدار ستة عشر عاماً.

وبحسبةٍ بسيطة, نجد أن الإمام قد استبعد ما يقارب 99% من المرويات التي كانت متداولة في عصره, ولم يُثبت منها إلّا نحو 1% فقط. هذا الاستبعاد الهائل يضعنا أمام حقيقة تاريخية لا مفر منها: وهي أن العصر الذي دُوّنت فيه الأحاديث كان غارقاً في ظاهرة 'التضخم الروائي' وانتشار الوضع والكذب؛ فإذا كان من بين كل مئة راوٍ, هناك تسعة وتسعون مشكوكٌ في صدقهم أو ضبطهم, فإن الثقة المطلقة في 'الواحد' المتبقي تظل خاضعة للاحتمال البشري والخطأ والوهم, وليست يقينية كيقين الوحي.

إن الدقة التي نُقلت عن البخاري في تحري أحوال الرواة, كما يصفها ابن الملقن في كتابه 'التوضيح', تعكس في حقيقتها حجم 'المعضلة' التي واجهها المدوّنون؛ فقد كانت عملية تنقية الحديث الواحد تتطلب بحثاً مضنياً في سِيَر الرجال وأحوالهم وسط بيئة تعجّ بالمدلسين.

وهنا يبرز السؤال الجوهري: إذا كان هذا هو حال البيئة التي نُقلت منها الروايات, فكيف يمكننا أن نمنح 'النتائج' التي توصل إليها جهدٌ بشري في القرن الثالث الهجري صفة الإلزام الإلهي, أو نعتبرها ديناً موازياً للقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟"

**البصمة السادسة:** دعوى السحر واهتزاز منظومة التحصين.

تأتي رواية 'سحر النبي' من قِبل أحد اليهود (لبيد بن الأعصم) كبصمةٍ أخرى تثير الكثير من الريبة المعرفية والمنطقية.

وتكمن خطورة هذه الرواية في أنها لا تصطدم فقط بوقار النبوة, بل تنسف فاعلية الترسانة الروحية التي طالما قيل إن النبي سَلّح بها أمته للوقاية من الشرور الغيبية.

نص الرواية:

"عَنْ عَائِشَةَ قالَتْ: سُحِرَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ, حتَّى كانَ يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّه يَفْعَلُ الشَّيْءَ وما يَفْعَلُهُ, حتَّى كانَ ذَاتَ يَومٍ دَعَا ودَعَا, ثُمَّ قالَ: أشَعَرْتِ أنَّ اللّٰهَ أفْتَانِي فِيما فيه شِفَائِي, أتَانِي رَجُلَانِ: فَقَعَدَ أحَدُهُما عِنْدَ رَأْسِي والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ, فَقالَ أحَدُهُما لِلْآخَرِ ما وجَعُ الرَّجُلِ؟ قالَ: مَطْبُوبٌ, قالَ: ومَن طَبَّهُ؟ قالَ لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ, قالَ: فِيما ذَا, قالَ: في مُشُطٍ ومُشَاطَةٍ وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ, قالَ فأيْنَ هُوَ؟ قالَ: في بئْرِ ذَرْوَانَ فَخَرَجَ إلَيْهَا النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ, ثُمَّ رَجَعَ فَقالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَقُلتُ اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقالَ: لَا, أمَّا أنَا فقَدْ شَفَانِي اللّٰهُ, وخَشِيتُ أنْ يُثِيرَ ذلكَ علَى النَّاسِ شَرًّا ثُمَّ دُفِنَتِ البِئْرُ".

الراوي: عائشة أم المؤمنين

المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: 3268

فبينما يمتلئ 'صحيح البخاري' بذاته بروياتٍ تحث المسلمين على التحصين عبر الأذكار, والآيات المنجية, والوسائل المادية كالتصبح بسبع تمرات من 'عجوة المدينة' للوقاية من السحر والسم, نتفاجأ في ذات الكتاب بروايةٍ تُقرر أن النبي -وهو مصدر هذه التعليمات ومعلمها- قد وقع ضحيةً لسحر يهوديٍّ تمكن منه وأثر في وعيه وسلوكه.

نص الرواية:

"مَن تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَراتٍ عَجْوَةً, لَمْ يَضُرَّهُ ذلكَ اليومَ سُمٌّ ولا سِحْرٌ".

الراوي: سعد بن أبي وقاص

المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: 5769

وهنا يبرز تساؤلٌ وجودي ومنطقي: لماذا لم تنفع 'التمرات السبع' ولا الآيات والتحصينات صاحبها ومصدرها؟ وكيف يستطيع يهوديٌّ من عامة الناس أن يضرب بكل هذه التحصينات الإلهية عرض الحائط ويصل إلى رأس الهرم في الإسلام؟

إن الإشكال الحقيقي هنا ليس مجرد رواية عابرة, بل هو 'التناقض البنيوي' داخل المصدر الواحد؛ فالبخاري يقدم لنا 'الدواء' و'الداء' في آنٍ واحد, ثم يُخبرنا أن الدواء لم ينفع مع الطبيب نفسه!

إن هذه المفارقة تضع الوعي المسلم في حرجٍ شديد؛ فإما أن وسائل التحصين التي رواها الإمام البخاري غير فاعلة, أو أن رواية السحر هي محض افتراء, والجمع بينهما مستحيلٌ منطقياً.

علاوة على ذلك, تحمل هذه الرواية في طياتها رسالةً تمنح 'الطرف الآخر' تفوقاً معنوياً وقوةً غيبية كاسحة؛ إذ تصوره بمظهر القادر على اختراق الحماية النبوية والسيطرة على إدراك الرسول.

إن لسان حال هذه المرويات يكرس صورة 'النبي الضحية' بدلاً من 'النبي المعصوم' بقطعيات القرآن.

إن قبول مثل هذه الروايات بدعوى 'صحة السند' هو قبولٌ بتفكيك منظومة العقيدة واليقين بوعود الله التي قررت أن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المخلصين, فكيف بمن هو سيدهم وإمامهم؟

**ثامنًا:**

تصلُ الدونيةُ في موروثِ الرواياتِ إلى حَدِّ إلحاقِ المرأةِ بعالمِ 'غير العاقل'، ووضعِها في كفّةٍ واحدةٍ مع الحيواناتِ في سياقِ إبطالِ العبادات.

نص الرواية:

"ذُكِرَ عِنْدَهَا ما يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الكَلْبُ والحِمَارُ والمَرْأَةُ، فَقالَتْ: شَبَّهْتُمُونَا بالحُمُرِ والكِلَابِ، واللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصَلِّي وإنِّي علَى السَّرِيرِ بيْنَهُ وبيْنَ القِبْلَةِ مُضْطَجِعَةً، فَتَبْدُو لي الحَاجَةُ، فأكْرَهُ أنْ أجْلِسَ، فَأُوذِيَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأنْسَلُّ مِن عِندِ رِجْلَيْهِ".

الراوي: عائشة أم المؤمنين

المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: 514

إنَّ هذا الحَصْرَ الثلاثي (المرأة، الحمار، الكلب) يضعُ الضميرَ الإنساني والمنطقَ الإيماني أمام صدمةٍ معرفية؛ فكيف يستقيمُ في عقلِ عاقلٍ أن يُجمَعَ بين 'المُكرَّمِ' إلهياً وبين البهائمِ في حُكمٍ تشريعيٍّ واحد؟

إنَّ جعلَ مرورِ المرأةِ بين يدي المصلي سبباً لـ 'فسادِ' صلاتِهِ وانقطاعِ صلتِهِ بربِّهِ، تماماً كما يفعلُ الحمارُ أو الكلبُ، هو اختزالٌ مهينٌ لكينونةِ الأنثى، وتصويرٌ لها ككائنٍ يحملُ طاقةً سلبيةً أو 'نجاسةً معنوية' قادرةً على اختراقِ قدسيةِ المِحراب.

واللافتُ في هذا السياق، أنَّ السيدةَ عائشة كانت هي أولُ مَن صدمتْها هذه الروايةُ وأنكرتْها بلسانٍ عربيٍّ وفكرٍ ثاقب. ففي البخاريّ نفسِهِ، نجدُ ردَّها الحاسمَ حين بلغَها هذا الحديث، فقالت مستنكرةً: (عَدَلْتُمُونَا بالْكِلابِ والْحَمِيرِ؟).

إنَّ شهادةَ أمِّ المؤمنين عائشة هي أقوى ردٍّ منطقيٍّ وتاريخيٍّ على 'اضطرابِ الرواية'؛ فهي تُثبتُ بطلانَ دعوى 'القَطْع'، وتُبينُ أنَّ واضعَ هذا النص قد أسقطَ أوهامَهُ وتصوراتِهِ الشخصيةَ عن المرأةِ على مَقامِ النبوة. فإذا كان

وجودُ المرأةِ أمام المصلي لا يقطعُ صلاتَهُ, فمن أينَ جاء الرواةُ بهذا 'الثالوثِ المهين'؟

إنَّ محاولاتِ التبريرِ التي تزعمُ أنَّ هذا لا يُمثّلُ إهانةً, بل هو مجردُ 'حُكمٍ تعبدي', هي محاولاتٌ تفتقرُ للمروءةِ الفكرية؛ فالمساواةُ في الحُكمِ تقتضي المساواةَ في القيمة, والقرآنُ الكريمُ الذي رَفَعَ شأنَ الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء 70] لا يمكنُ أن يضعَ نصفَ البشريةِ في خندقٍ واحدٍ مع الدواب.

إنَّ استبقاءَ هذه الرواياتِ في خانةِ 'القداسة' هو مشاركةٌ في وأدِ كرامةِ المرأةِ معنوياً, وتقديمٌ لثقافةِ 'الوصمِ الحيواني' على جوهرِ التكريمِ الإلهي الذي مَلأَ أركانَ الكتابِ الحكيم.

**رابعًا:**

أيضًا من التطابقِ البنيوي بين مروياتِ البخاري وبين التراثِ اليهودي روايةِ 'سجودِ الشمس'.

نص الرواية: (مرّت معنا سابقًا)

قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ لأبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أتَدْرِي أيْنَ تَذْهَبُ؟ قُلتُ: اللّٰهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فإنَّهَا تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ، فيُؤْذَنُ لَهَا، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ، فلا يُقْبَلَ منها، وتَسْتَأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِن حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِن مَغْرِبِهَا، فَذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: 38].

الراوي: أبو ذر الغفاري

المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: 3199

تجدُ هذه الفكرةُ أصلَها في الأدبياتِ التفسيريةِ اليهودية المعروفة بـ 'الميدراش'، وتحديداً في (ميدراش تيهيليم - Midrash Tehillim) على المزمور 19، وفي (سِفر أخنوخ - Enoch1) في الأصحاحات المتعلقة بحركة الأجرام.

تصفُ النصوصُ اليهوديةُ القديمةُ الشمسَ والقمرَ ككائناتٍ واعيةٍ تُؤدي طقوسَ العبادةِ أمام العرشِ الإلهي قبل أنْ يُؤذنَ لها بالطلوعِ مجدداً كلَّ يوم. هذا التصورُ يعكسُ الرؤيةَ الكونيةَ التي كانت سائدةً في بيئةِ أهلِ الكتاب، حيث كان يُعتقدُ أنَّ الكونُ محكومٌ بـ 'أوامرَ يوميةٍ ميكانيكية' وليس بـ 'سننٍ فيزيائيةٍ ثابتة'.

إنَّ انتقالَ هذه التفاصيل (السجود، الاستئذان، الإذن) بحذافيرِها من 'الميدراش' إلى 'صحيح البخاري'، يُثبتُ أنَّ الرواةَ الذين كانت لهم صلاتٌ بثقافةِ أهلِ الكتاب (مثل كعب الأحبار) قد نقلوا هذه التصوراتِ الأسطوريةَ ونحلوها للنبي لتكتسبَ صبغةَ القداسةِ الإسلامية.

**أولًا:**

تعدُّ رواية 'خَلْق المرأة من ضلعٍ أعوج' من أوضح الشواهد على تسلل 'المخيال التوراتي' إلى صحيح البخاري؛ فبينما يكتفي القرآن الكريم بتقرير وحدة الأصل الإنساني ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف 189] دون تفضيلٍ ماديٍّ في طبيعة الخَلْق.

نص الرواية:

اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ, وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ, فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ, وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ, فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ.

الراوي: أبو هريرة

المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: 3331

إنَّ القارئ الفاحص يكتشفُ أنَّ هذا النص ليس إلّا صدىً مباشراً لما ورد في (سِفر التكوين), وهو السفر الأول في العهد القديم (التوراة).

**أولاً**: التطابقُ النصي بين الرواية والتوراة.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح 2, الآيتان 21-22) ما نصُّه:

(فأوقع الربُّ الإلهُ سُباتاً على آدم فنام, فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الربُّ الإلهُ الضلعَ التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم).

إنَّ وجهَ التطابق هنا مذهل؛ فالفكرة المركزية بأنَّ المرأة 'جزءٌ مقتطع' من الرجل, وأنها مدينةٌ له بوجودها المادي, هي فكرة توراتية بامتياز.

لقد تسرّبت هذه القصة عبر الرواة الذين كانت لديهم ثقافة دينية سابقة (الإسرائيليات), وبمرور الوقت نُحلت للنبي وصيغت بلسانٍ عربيٍّ زاد عليها وصف 'الاعوجاج' لترسيخ دونية المرأة.

**ثانياً**: الانحرافُ عن "الزوجية" القرآنية.

يُؤصل القرآن الكريم لمفهوم 'الزوجية' المتزامنة والمتساوية في الخلق: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء 1] حيث تشير 'مِن' هنا إلى (الجنس والنوع) وليس

(التبعية المادية)، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة 128] أما الرواية -بمنبعها التوراتي- فقد حوّلت المرأة من 'نفسٍ مساوية' إلى 'عضوٍ تابع'، بل وعضوٍ معطوبٍ بطبعه (أعوج)، وهو ما يتنافى مع كمال الخلق القرآني ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة 7].